

[الظاهر، الباطن] (١٢، ١١)

ودليل هذين الاسمين الكريمين سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّهَرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، وكذلك الحديث الذي سبق تخريجه وفيه: (وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء... الحديث).

المعنى اللغوي (للظاهر):

قال في اللسان: «الظهر من كل شيء خلاف البطن... وظهارة الثوب ما علا الظهر ولم يل الجسد وظهرت البيت: علوئه»^(١).

المعنى في حق الله تعالى:

قال ابن جرير الطبري: «وقوله: (والظاهر) يقول: وهو الظاهر على كل شيء دونه، وهو العالي فوق كل شيء فلا شيء أعلى منه»^(٢).

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «اسمه (الظاهر) من لوازمه أن لا يكون فوقه شيء كما في الصحيح: (وأنت الظاهر فليس فوقك شيء)، بل هو سبحانه فوق كل شيء فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه (الظاهر).

ولا يصح أن يكون (الظاهر): هو من له فوقية القدر فقط، كما يقال: الذهب فوق الفضة؛ والجوهر فوق الزجاج، لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المَفُوقُ أظهر من الفائت فيها، ولا يصح أن يكون

(١) لسان العرب: ٤/ ٢٧٦٥.

(٢) تفسير الطبري ٢٧/ ١٢٤.

ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهراً بالقهر والغلبة لمقابلة الاسم (الباطن)؛ وهو: الذي ليس دونه شيء، كما قابل (الأول) الذي ليس قبله شيء؛ بـ(الآخر): الذي ليس بعده شيء^(١).
وقد ذكر الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - اسم الجلالة (الظاهر) في نونيته فقال:

والظاهرُ العالِي الذي ما فوقه	شيءٌ كما قد قال ذو البرهانِ
حقاً رسول الله ذا نفسِيره	ولقد رواه مسلم بضمانِ
فاقبله لا تقبل سواه من التفاهة	سير التي قيلت بلا برهانِ
والشيء حين يتم منه علوه	فظهوره في غاية التبيانِ
أو ما ترى هذي السما وعلوها	وظهورها وكذلك القمرانِ
والعكس أيضاً ثابت فسفوله	وخفاؤه إذ ذاك مصطحبانِ
فانظر إلى علو المحيط وأخذه	صفة الظهورِ وذاك ذو تبيانِ
وانظر خفاء المركز الأدنى ووصد	ف السفل فيه وكونه تحتاني
وظهوره سبحانه بالذات مثد	ل علوه فهما له صفتان
لا تجحدنهما جحود الجهم أو	صاف الكمال تكون ذا بهتانِ
وظهوره هو مقتضى لعلوه	وعلوه لظهوره ببيانِ
وكذاك قد دخلت هناك الفاء للتد	سبب مؤذنة بهذا الشأنِ
فتأملن تفسير أعلم خلقه	بصفاته من جاء بالقرآنِ
إذ قال أنت كذا فليس لضده	أبدًا إليك تطرق الاتيان ^(٢)

(١) مدارج السالكين ١/ ٣١.

(٢) نونية ابن القيم «الآيات رقم ١٢٤٩ - ١٢٦١».

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: «و(الظاهر): يدل على عظمة صفاته واضمحلال كل شيء عند عظمته من ذوات وصفات، ويدل على علوه»^(١).

المعنى اللغوي (الباطن): قال في اللسان: «البطانة خلاف الظهارة، والباطن خلاف الظهر، وبطنت الأمر: إذا عرفت باطنه»^(٢)

المعنى في حق الله تعالى: يقول الطبري رحمه الله تعالى: «و(الباطن): وهو الباطن لجميع الأشياء فلا شيء أقرب إلى شيء منه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]»^(٣).

وقال الزجاج: «و(الباطن): هو العالم ببطانة الشيء، يقال: بطنت فلاناً وخبرته إذا عرفت باطنه وظاهره. والله عارف ببواطن الأمور وظواهرها. فهو ذو الظاهر، وذو الباطن»^(٤).

ويكفي في تعريف اسمه سبحانه (الباطن) قوله ﷺ في الحديث السابق: (وأنت الباطن فليس دونك شيء).

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: «والباطن: يدل على اطلاعه على السرائر والضمائر والخبايا والخبائيا، ودقائق الأشياء، كما يدل على كمال قربه ودنوه، ولا يتنافى الظاهر والباطن؛ لأن الله ليس كمثل شيء في كل النعوت؛ فهو العلي في دنوه، القريب في علوه»^(٥).

(١) تفسير أسماء الله الحسنى ص ١٧٠.

(٢) لسان العرب ١/ ٣٠٥.

(٣) تفسير الطبري ٢٧/ ١٢٤.

(٤) تفسير الأسماء ص ٦١.

(٥) تفسير أسماء الله الحسنى ص ١٧٠ للشيخ السعدي. دراسة وتحقيق عبيد بن علي

العبيد، نشر: الجامعة الإسلامية العدد (١١٢).

من آثار الإيمان باسمه سبحانه (الظاهر)، (الباطن):

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «... والمقصود أن التعبد باسمه (الظاهر) يجمع القلب على المعبود، ويجعل له رباً يقصده، وصمداً يصمد إليه في حوائجه، وملجأً يلجأ إليه. فإذا استقر ذلك في قلبه وعرف ربه باسمه (الظاهر) استقامت له عبوديته، وصار له معقل وموئل يلجأ إليه، ويهرب إليه، ويفر في كل وقت إليه.

وأما تعبده باسمه (الباطن) فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكَلِّ اللسان عن وصفه، وتصطمم الإشارة إليه، وتجفو العبارة عنه، فإنه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التعطيل، مخرجة من فرث التشبيه، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارة مؤدية للمعنى كاشفة عنه، وذوقاً صحيحاً سليماً من أذواق أهل الانحراف. فمن رزق هذا فهم معنى اسمه (الباطن) وصح له التعبد له. وسبحان الله كم زلت في هذا المقام أقدام، وضلت فيه أفهام، وتكلم فيه الزنديق بلسان الصديق، واشتبه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين، لنبو الأفهام عنه، وعزة تخلص الحق من الباطل فيه، والتباس ما في الذهن بما في الخارج إلا على من رزقه الله بصيرة في الحق، ونوراً يميز به بين الهدى والضلال، وفرقاً يفرق به بين الحق والباطل، ورزق مع ذلك اطلاعاً على أسباب الخطأ وتفرق الطرق ومثار الغلط، وكان له بصيرة في الحق والباطل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة إحاطة (الرب) سبحانه بالعالم وعظمته، وأن العوالم كلها في قبضته، وأن السماوات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ [البروج: ٢٠]، ولهذا يقرب سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين: اسم العلو الدال على أنه (الظاهر) وأنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدال على الإحاطة وأنه لا شيء دونه، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [الشورى: ٤]، وقال - عز وجل - : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّهُ ﴾ [البقرة: ١١٥] (١).

ويقول في موطن آخر: « وأما التعبد باسمه (الباطن) فإذا شهدت إحاطته بالعوالم وقرب البعيد منه، وظهور البواطن له، وبدو السرائر وأنه لا شيء بينه وبينها فعامله بمقتضى هذا الشهود، وطهر له سريرتك فإنها عنده علانية، وأصلح له غيبك فإنه عنده شهادة، وزك له باطنك فإنه عنده ظاهر» (٢).

من أسرار اقتران أسماء الله الحسنى (الأول، الآخر، الظاهر، الباطن):

قد ذكر الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - جانباً من دلالات هذا الاقتران، فقال رحمه الله تعالى: « فمعرفة هذه الأسماء الأربعة: (الأول، والآخر، والظاهر، والباطن) هي (٣) أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد

(١) طريق المهجرتين ص ٣٢.

(٢) نفس المصدر ص ٢٦.

(٣) هكذا في المطبوع، ولعلها: «هي من أركان العلم والمعرفة».

أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه.

واعلم أن لك أنت أولاً، وآخرًا، وظاهرًا، وباطنًا، بل كل شيء فله أول، وآخر، وظاهر، وباطن، حتى الخطرة واللحظة والنفس وأدنى من ذلك وأكثر، فأولية الله - عز وجل - سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه. فأوليته سبقه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه. وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه، هذا لون وهذا لون. فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية ومكانية، فإحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعء، فكل سابق انتهى إلى أوليته، وكل آخر انتهى إلى آخريته، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده: فالأول قدمه، والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه. فسبق كل شيء بأوليته، وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا توارى منه سماء سماء ولا أرض أرضًا، ولا يحجب عنه ظاهر باطنًا، بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية. فهذه الأسماء الأربعة تشمل على أركان التوحيد، فهو (الأول) في آخريته و(الآخر) في أوليته، و(الظاهر) في بطونه و(الباطن)

في ظهوره، لم يزل أولاً، وآخرًا، وظاهرًا، وباطنًا»^(١).

وقد أورد ابن القيم - رحمه الله تعالى - هذه الأسماء مجتمعة في نونيته الشهيرة حيث يقول:

هو أول هو آخر هو ظاهر	هو باطن هي أربع بوزان
ما قبله شيء كذا ما بعده	شيء تعالى الله ذو السلطان
ما فوقه شيء كذا ما دونه	شيء وذا تفسير ذي البرهان
فانظر إلى تفسيره بتدبر	وتبصر وتعقل لمعان ^(٢)

ويعلل - رحمه الله تعالى - ورود هذه الأسماء معطوفة بعضها على بعض فيقول: «وأما في أسماء (الرّب) - تبارك وتعالى - فأكثر ما يجيء في القرآن بغير عطف نحو: (السميع العليم، العزيز الحكيم، الغفور الرحيم، الملك القدوس السلام) إلى آخرها. وجاءت معطوفة في أربعة أسماء وهي: (الأول والآخر، والظاهر والباطن) فأما ترك العطف في الغالب فلتناسب معاني تلك الأسماء، وقرب بعضها من بعض وشعور الذهن بالثاني من شعوره بالأول. ألا ترى أنك إذا شعرت بصفة المغفرة انتقل ذهنك منها إلى الرحمة، وكذلك إذا شعرت بصفة السمع انتقل الذهن إلى البصر، وكذلك (الخالق البارئ المصور)... وأما تلك الأسماء فلما كانت دالة على معانٍ متباينة، وأن الكمال في الاتصاف بها على تباينها ... فهي ثابتة للموصوف بها... وأيضاً لأن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم وتقريره، ففي العطف مزيد تقرير وتوكيد يدفع به توهم الإنكار... فإذا قيل: هو الأول ربما سرى

(١) طريق المهجرتين ص ٢٥.

(٢) نونية ابن القيم ٢/٢١٣.

الوهم إلى أن كونه أولاً يقتضي أن يكون الآخر غيره...

وكذلك (الظاهر والباطن) إذا قيل: هو (ظاهر) ربما سرى الوهم إلى أن (الباطن) مقابله فقطع هذا الوهم بحرف العطف الدال على أن الموصوف بالأولية هو الموصوف بالآخرية، فكأنه قيل: هو الأول، وهو الآخر، وهو الظاهر، وهو الباطن، لا سواه... والذي يوضح ذلك أنه إذا كان للبلد مثلاً قاض وخطيب وأمير فاجتمعت في رجل حسن أن تقول: زيد هو الخطيب والقاضي والأمير وكان للعطف هنا مزية ليست للنعته المجرد فعطف الصفات هنا أحسن قطعاً لوهم متوهم أن الخطيب غيره. وأن الأمير غيره»^(١).

- ومن آثار هذه الأسماء الجلييلة: أنها علاج للوسوسة الشيطانية في كنه الذات الإلهية فعن أبي زميل قال: «سألت ابن عباس - رضي الله عنهما - فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قال: قلت: والله لا أتكلم به. قال: فقال لي: شيء من شك؟ قلت: بلى. فقال لي: ما نجا من ذلك أحد، حتى أنزل الله - عز وجل -: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، قال: فقال لي: فإذا وجدت في نفسك شيئاً، فقل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]»^(٢).

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٩٨، ١٩٩ «باختصار وتصرف يسير».

(٢) أبو داود (٥١١٠)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٢٦٢).

ويعلق الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - على هذا الأثر فيقول: «فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل الباطل ببدية العقل، وأن سلسلة المخلوقات في ابتدائها تنتهي إلى أول ليس قبله شيء، كما تنتهي في آخرها إلى آخر ليس بعده شيء، كما أن ظهوره هو العلو الذي ليس فوقه شيء، وبُطونه هو الإحاطة التي لا يكون دونه فيها شيء، ولو كان قبله شيء يكون مؤثراً فيه، لكان ذلك هو (الرب) الخلاق، ولا بد أن ينتهي الأمر إلى خالق غير مخلوق، وغني عن غيره، وكل شيء فقير إليه. قائم بنفسه، وكل شيء قائم به. موجود بذاته، وكل شيء موجود به. قديم لا أول له، وكل ما سواه فوجوده بعد عدمه. باق بذاته، وبقاء كل شيء به، فهو (الأول) الذي ليس قبله شيء، و(الآخر) الذي ليس بعده شيء، (الظاهر) الذي ليس فوقه شيء، (الباطن) الذي ليس دونه شيء»^(١).



(١) زاد المعاد ٢/٤٦١، ٤٦٢.